في الدعوة والحركة

في معاني الحج وواقع المسلمين

الأخ أبو الشيماء

إنه لأمر عظيم أن يكلّف الله عزَّ وجلَّ إبراهيم عليه السلام إذ فرغ من إقامة البيت على أساس توحيد الله أن يؤذن في الناس بالحجّ ، وأن يدعوهم إلى بيت الله الحرام فيأتوا من كلّ فجّ رجالاً يسعون على أقدامهم وركباناً على كلّ ضامر ، ولقد تحقق وعد الله في أن يلبيّ النّاس دعوة إبراهيم عليه السلام ، وما يزال يتحقق إلى اليوم والغد ، وما تزال أفئدة من الناس تهوي إلى البيت الحرام ، تشتاق لرؤيته والطواف به ، وعشرات الألوف من الناس يتقاطرون من مشارق الأرض ومغاربها تلبية لدعوة الله التي أذن بها إبراهيم عليه السلام منذ آلاف السنين

ويا له من منظر عظيم حينما يدخل المسلم المسجد الحرام ويشاهد الكعبة التي أذن الله أن تكون قبلة المـــسلمين ، وكم يشتاق المسلم لرؤية هذه الكعبة والطواف حولها ، والسعي بين الصفا والمروة ، والإشراف على زمزم ليحمـــل الماء فوق رأسه .. ويا له من مشهد رائع ذاك الذي يتمثل في طواف المسلمين بالبيت ليل نهار فلا يتوقف ولا ينقطع ، ثم ذلك النداء العظيم (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إنّ الحمد والنعمة لك والملـــك ، لا شـــريك لك) ، تلهج به ألسنة المؤمنين رغم اختلاف مشاربهم ولغاتهم ، وهؤلاء جميعاً جاؤوا ﴿ **لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ** ﴾[1] ، وهذه المنافع أكثر ممّا تحصيه كلمة أو كتاب ، فالحج موسم ومؤتمر للعبادة والاجتماع والتعارف وتنسيق الجهود والتعاون على البرّ والتقوى ، والحجّ هو الفريـــضة التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة كما تلتقي فيها ذكريات العقيدة منذ إبراهيم وهاجر وإسماعيل إلى محمد بن عبـــد الله صلوات الله وسلامه على أنبيائه ورسله أجمعين ، والأصل أن تصفو في هذا الموسم أرواح زوّار بيت الله الحرام ، وأن تستشعر النفوس قربها من الله في بيته العتيق ، في هذا الموسم يجدّد المسلمون وحدتهم التي افتقدوها ، ويلتقـــون علـــى الهدف الواحد بعد أن تعدّدت الأهداف ، وتجمعهم كلمة التوحيد ونداء التلبية بعد أن فرّقتهم العصبيات والانتماءات والولاء لغير الله

وقد يتوقع القارئ منّي حديثاً عن المؤتمر الجامع والفوائد العظيمة التي ترجى من ورائه ، ولكـــنّني –مـــع بعـــض الأسى– سأتناول بعض المشاهد ذات الدلالات العميقة ، والتي تعكس واقع العالم الإسلاميّ المترامي الأطراف المتقطّع الأوصال والمتشتّت الأهداف المتساقط على أعتاب الشرق والغرب يستقي المناهج ويطلب الحماية والصداقة وقد أدبر عن صراط الله المستقيم ، وأعرض عن المنهج الذي بلّغه محمد ﷺ ، فتوجّهت السهام والقذائف اللسانية والحربية إلى أبناء المسلمين من إخوانهم المسلمين ، وانطبق على المسلمين ما قاله الله تعالى عن بني إسرائيل : ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ**

لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ۞ ثُمَّ أَنْتُمْ هَـــؤُلاءِ تَقْتُلُـــونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ... ﴾[٢]

أما المشهد الأوّل فيعكس لنا جانباً من تصرّفات الحجيج ، ومنها يمكننا التعرّف على واقع المسلمين في منـــاطقهم المختلفة ، فالحق أنّني كنت أعتقد أنّ المسلم الذي جاء ملبيّاً للقيام بمناسك الحجّ والعمرة وزيارة بيت الله الحرام ملمٌّ – على أضعف الإيمان– بهذه المناسك وبآداب الزيارة ، وأنّ المسلم يستشعر أن للبلد الحرام من التعظيم والتكريم والحرمة من نفسه ما يدفعه إلى الإقلاع عن الخصال غير الحميدة ، فيعي معنى قول الله عزَّ وجلَّ ويطبّقه ﴿ **الْحَـــجُّ أَشْـــهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ...** ﴾[٣] .. ولكن –للأسف الشديد– يأتي الحجَّ أعدادٌ هائلةٌ من المسلمين الذين افتقدوا المعرفة بأوامر الله والتربية عليها ومع تطبيقهـــا ، فتـــرى الجـــدال والصياح في الحرم وترى اختلاط الرجال بالنساء في الطوائف وفي الصلاة بل وفي النوم بالحرم ، وترى أعمالاً جاهلية تشمل المناظر المؤذية للمسلمين وهم على جبل الرحمة في عرفة ، وترى في منى مزاحمة الناس لبعضهم الـــبعض وهـــم يرمون الجمار ، حتى ليرجم المسلم أخاه المسلم بالحجارة ، وقد ترى من يرجمون حـــتى بالنعـــال ، وهـــم يلعنـــون الشيطان ، تأكيداً على درجة كرههم إياه وغيظهم منه ، وربّما يستسلم هؤلاء للشيطان بعد دقائق ويعايشونه ، وأمّا عن الذبائح وما يصنع بها من جانب الحجيج ومن جانب المسؤولين أيضاً فإنّه منظر تقشعرّ له الأبدان وتـــشمئز منـــه النفوس ، وصدق الله العظيم القائل في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : ﴿ **ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّـــمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾[٤] .. فأين آثار تقوى القلوب في تصرّفات المسلمين ؟ ..

أمّا المشهد الثاني فيعكس لنا جانباً من تصرّفات من بيدهم الأمر في (السعودية) ، فعندما فوّض الله عـــزَّ وجـــلَّ إبراهيم عليه السلام ببناء البيت والأذان في الناس بالحجّ إليه ، بيّن الأساس الذي يبنى عليه البيت وهو التوحيد ، وأما حيـــاة الناس وتعاملهم عند البيت –كما هي في سائر جوانب الحياة الإسلاميّة– أن يكون الناس جميعاً سواء ، فهو بيت الله الذي يتساوى فيه العباد فلا يملكه أحد منهم ، ولا يمتاز فيه أحـــد علـــى الآخـــر ﴿ ... **سَـــوَاءً الْعَـــاكِفُ فِيـــهِ وَالْبَادِ** ... ﴾[٥] .. ولكنّني شاهدت أثناء عملية غسيل الكعبة مشهداً أودّ تسجيله هنا .. فبعد صلاة الفجر في أحـــد الأيام ، التف عدد من جنود (المملكة) حول الكعبة على شكل دائرة ، وأخذت هذه الدائرة تتسع بحيث أصـــبحت المسافة بين الكعبة والجند ثلثي منطقة الطواف تقريباً ، وبعد أن استقرّت الدائرة تشكّل (طريق من الجند) يصل هـــذه الدائرة بـ (باب الملك) ، وهو أحد أبواب الحرم ، يمرّ منه عادة (الأمراء) والوفود في مثل هذه المناسبات ، وبقي الناس يطوفون في الدائرة الخارجية ، أمّا الدائرة الداخلية فأجريت فيها عمليات تنظيف لفترة ليست قصيرة من الزمن ، وبعد ذلك دخل إلى هذه الدائرة الفارغة تماماً ، رجل واحد لا يرتدي ملابس الإحرام وإنّما ملابـــسه العاديـــة .. وأخـــذ يطوف في هذه الدائرة الفارغة بمفرده في الوقت الذي يتزاحم فيه الحجيج في الدائرة الخارجية ، وكان هذا الإنـــسان المميّز يقبّل الحجر الأسود باطمئنان في كلّ شوط من أشواط الطواف في الوقت الذي يمرّ فيه الناس الآخـــرون مـــن

المنطقة الموازية للحجر الأسود حشراً ، ويشيرون إلى الركن قائلين (بسم الله والله أكبر) ، وممّا هالني أن طابور طواف الحجيج في الدائرة الخارجية كان يقطع كلمّا مرّ أحدٌ من أولئك الأفراد ، في الوقت الذي اتخذت فيه إجراءات الحراسة المشدّدة ، بحيث أخلي الطابق الثاني للحرم من زوّار بيت الله ، ليحلّ محلّهم رجال الجيش بأسلحتهم .. ولّما رأيت هذا المنظر تذكّرت أن عمر بن الخطاب ﷺ استشهد وهو يؤمّ الناس في مسجد رسول الله ﷺ ، و لم يكن هناك حرّاس ورجال أمن حوله ، و لم يؤثّر ذلك على من جاء بعده من الخلفاء الراشدين فلم يمنعوا المصلّين من عامّة الناس من الصفّ الأوّل ، ولا أصبح الخليفة يدخل محاطاً بالحرّاس ورجال الأمن .. وأتساءل : هل يكون مع هذه الأعمال وما يماثلها مساواة بين المسلمين سواء العاكف منهم والباد ، أم هي التفرقة والتمييز وعدم المساواة ؟

أمّا المشهد الثالث فلا أتحدّث من خلاله عن اختلاف الفقهاء في جواز الملكية الفردية لبيوت مكة غير المسكونة بأهلها ، وفي جواز كراء هذه البيوت عند أجار ملكيتها ، ولا أتحدّث عن البرامج غير الصادقة التي تبثّ من الإذاعة عن طريقة معاملة الحجيج وملاقاتهم ، فذلك يحتاج إلى مساحة لا تسمح الظروف بها ، وإنّما أقف عند قول الله تعالى : ﴿ ... **وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾[٦] ، لألفت النظر إلى تهديد الله عزَّ وجلَّ لمن يريد اعوجاجاً لمنهجه المستقيم .. والتهديدُ بالتعبير القرآني لمجرّد (الإرادة) زيادةً في التحذير ومبالغة في التوكيد ، فما بال من يريد ويفعل ؟ ..

إنّ الظلم والاستغلال الذي يتعرّض له الحجيج من كثير من المطوفين وأصحاب المحلاّت التجارية وأصحاب المنازل التي تؤجّر لضيوف الرحمن ، وسائقي المركبات في مكة المكرمة البلد الأمين .. لا توصف بكتابة ، ولا يكاد يمكن أن يتخيّل وجودها القارئ إلاّ بالمشاهدة والتعامل مع هؤلاء .. والغريب أنّ الإنسان إذا حاول أن يذكّر هؤلاء بما قاله الله تعالى ورسوله ﷺ وبتقوى الله .. فإنّه يسمع على الأغلب إجابة تقول : (لا جدال في الحج يا حجي)

وأذكّر نفسي والمسلمين بقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا** ... ﴾[٧]

وهذه أيها الإخوة المسلمون هي دعوة الله للقيام له بعيداً عن الهوى وبعيداً عن المصلحة .. دعوة للتعامل مع الواقع البسيط ومنطق الفطرة الصافي ، وهي في نفس الوقت منهج للبحث عن الحقيقة ، وهي (واحدة) إن تحققت صحّ المنهج واستقام الطريق ، القيام لله .. لا لمقصد دنيوي ، ولا لهوى ، ولا لمصلحة ذاتية .. إنّه التجرّد والخلوص لله ثمّ التفكّر (مثنى) ليراجع أحدهما الآخر فالمسلم مرآة أخيه ، والأخذ والعطاء بغير انفعال يوصل إلى الحجة بهدوء .. و(فرادى) ليخلو المسلم مع نفسه ويحاسبها ليتبيّن الحقّ من الباطل .. هذا هو الطريق ، أمّا إذا أعرضنا فلنعلم : ﴿ ... **إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** ﴾[٨]

---

(١) [الحج : ٢٨]

(٢) [البقرة : ٨٤-٨٥]

(٣) [البقرة : ١٩٧]

(٤) [الحج : ٣٢]

(٥) [إبراهيم : ٢٥]

(٦) [الحج : ٢٥]

(٧) و(٨) [سبأ : ٤٦]